بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السابعة

لقد رأيت أن أقوم فى هذه الطبعة الجديدة بمراجعة تامة منهجية ومادية لجميع أبواب الطبعة السابقة وفصولها . أقول : وقفت موقف الناقد مما كتبت من قبل . وقد رأيت أن أعرض لمجموعة المناهج التى يستخدمها ويطبقها علماء الاستشراق وبعض العلماء الباحثين من العرب . وقد ناقشت هذه المناهج وهذه التفسيرات . وهذه الرؤى . وتبين لى أن المنهج الذى أختطه أنا ، والتفسير الذى قدمته هما المنهج والتفسير الصحيحان : المنهج التاريخى المحايد والتفسير الموضوعى – ولا أنكر أبداً أننى ألجأ إلى المناهج الأخرى ، إن كان ثمة حاجة إليها . أما أن نفتعل منهجاً أو نقصر أنفسنا على تفسير خارج على الموضوعية ، فإننا نصل إلى نتائج واهية مضحكة ، لا تقدم لنا التفسير الحقيقى للفكر الإنسانى عامة وللإسلامى خاصة .

أما مادة الكتاب ، فقد غيرت الكثير مما ورد فى الطبعة الأولى ، وحذفت الكثير من الفقرات ، وقومت الكثير من المصطلحات . بحيث تبدو المادة فى صورة أخرى . كما قسمت هذه الطبعة إلى أبواب وفصول وفقرات . مما يسهل على القارئ . النظر فى الموضوع والتأمل فيه .

وما زلت أقول : إنه ما زال للتصوف أثره الكبير فى حياتنا المعاصرة . إنه لم يمت أبداً . ولابد إذن أن نتعرف أصوله ، وأن نتفهم نشأته وتطوره . وأرجو أن أوفق إلى متابعة الكتابة فيه ، وأن أقدم للمكتبة العربية – الجزء الرابع – من نشأة الفكر محتوياً على تطور الحياة الروحية فى الإسلام – فى القرنين الثالث والرابع الهجريين – وهما من أهم عهود الإسلام فى تقويم الحياة الروحية الإسلامية .

والله ولى التوفيق .

الرباط فى :
الثانى من رمضان عام ١٣٩٧ هـ .
والثامن عشر من أغسطس عام ١٩٧٧ م .

دكتور على سامى النشار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إن من أشق الأمور حقيقة تأريخ نشأة الحياة الروحية فى الإسلام وتطور هذه النشأة وذلك لسببين هامين : أما السبب الأول فإن الباحثين فى هذه الحياة ومعظمهم من المستشرقين ، لم يكتبوا – ما كتبوا عنها – متابعين منهجاً موضوعياً . لم يكن غاية المستشرقين اكتناه حقيقة هذه الحياة بقدر ما كانت غايتهم سلبها عن جوهرها الحقيقى – الإسلام . فانتهت أبحاثهم إلى أن الحياة الروحية فى الإسلام ترتبط بكل شىء ما عدا الإسلام . أثارتها اليهودية والمسيحية ، كما أقامتها البوذية واليوجا أو الجينا ، والجيمنوفيست الهندى والأديان الفارسية ، زرادشت ومانى ، وأثرت فيها الصابئة والحرنانية ، وصبغتها الأفلاطونية المحدثة اليونانية . . وهكذا انتهت أبحاث هؤلاء المستشرقين – إلا فيما ندر – إلى أن كل طارئ على حياة العباد والزهاد والصوفية ، وكل عارض على حلقاتهم المتعددة ، إنما هو الجوهر . . . أما الجوهر . . . أما الإسلام ، فلم يكن بشىء ذى بال فى حياتهم ، وفى نمط سلوكهم . . . وفى تراثهم العارم المليء . . . وكذب هؤلاء المستشرقون ، أو بمعنى أخف . . . كانت أبحاثهم تعبيراً عن ذاتهم هم ، أو تحقيقاً لأفكار سابقة . أرادوا صبغ الحياة الزهدية والصوفية فى الإسلام بها . . . وكان رائد هؤلاء الكاذبين جولد تسيهر . . . يهودى مجرى متعصب ، رأى أن يربط زهاد الإسلام وصوفيتهم بكل شىء غير إسلامى – فالزهد إنما هو انعكاس للديرية المسيحية ، وأوائل المتصوفة أو ما أسميتهم فى هذا الكتاب – بالزهاد الضاربين نحو التصوف إنما هم صورة بوذا . . . ثم إن التصوف – بعد – إنما هو مزيج من المسيحية واليهودية والفلسفة اليونانية . . . ثم ظهر نيكلسون . . . وتابع هذا المنهج السقيم . . . وربط التصوف بالأفلاطونية المحدثة من ناحية ، وصور المسيحية المختلفة من ناحية أخرى . . . ثم ربط معروفاً الكرخى – وتحت تأثير نصوص لم يحسن قراءتها فى الفارسية – بالمندائية . . . وأدلى ماسينيون بدلوه . . . فكل شىء فى حياة الروح عند المسلمين إنما هو فى صورة مسيحية . كذلك فعل آسين بلاسيوس . فوضع نظرية الأثر والمؤثر . . . ولست أستقرى هنا كل أبحاث المستشرقين ، وإنما أذكر نماذج فقط من هذا المنهج الأعرج الأعور السقيم ، فلم ينظر هؤلاء الأمر إلا

بعين واحدة ، بعين ملئت بالحقد على الإسلام وأصالته كدين وكفكر . . . كانت أبحاث هؤلاء – بالرغم من صوغها فى صورة البحث العلمى البحت وادعائها أنها أبحاث نزيهة فى تاريخ الأديان المقارن . . . إنما هى بقايا من علم الدفاع عن الدين المسيحى الذى بدأ فى العصور الوسطى المسيحية ، وكانت غايته إقامة حرب صليبية ثقافية ، بجانب الحرب الصليبية العسكرية . وقد انتهى التصوف – كما نعلم – إلى سيد مفكرى الإسلام جميعاً – أبى حامد الغزالى – وأقام أبو حامد الغزالى – التصوف الإسلامى – فى صورته النهائية – علماً للأخلاق عند المسلمين . فتتبع المستشرقون نشأة التصوف . . . وصبغوه بالأثر المسيحى ، كما تتبعوا تلقى أبى حامد الغزالى . لهذا التراث وتجربته الشخصية فيه وحاولوا إثبات العناصر المسيحية فى تصوفه . . . فكانت المحاولات المبتسرة ، والمقارنات المضحكة المبكية ، والجهل الصارخ فى فهم النص العربى ، وتمزيقه وتشقيقه . وحقيقة الأمر فى الغزالى وغيره من صوفية أهل السنة العظماء ، وبخاصة الأشاعرة . . . أنهم نبعوا من القرآن وصدروا عن الروح المحمدى . فإذا رأوا فى نصوص الأمم السابقة ، ما يؤيد النص القرآنى أو الحديث المحمدى . قبلوه ووضعوه مؤيداً لفكرتهم الإسلامية . والدين فى النظرية الإسلامية واحد ، والأنبياء تتابعوا ، يؤيد الواحد منهم الآخر ، فلا ضرر ولا ضرار إذا أيد أثر يهودى أو مسيحى فكرة الزهد الإسلامية والمنبثقة عن محمد ﷺ وصحابته ، أو فكرة الحب الإسلامية ، التى يعلنها ويقررها أولاً القرآن والسنة . لم يفهم الأوربيون هذا أبداً ، ولم ينفذوا إلى أعماق المسائل . . . فكان أمام الباحث النزيه – كما قلت – مشقة فى كتابة الحياة الروحية فى الإسلام وبخاصة نشأتها .

أما السبب الثانى – فى صعوبة الكتابة فى نشأة الحياة الروحية فى الإسلام – فهو طبيعة الموضوع نفسه ، فقد تكثر المصادر القديمة فى ناحية ، وتقل أو تكاد تنعدم فى ناحية أخرى ، بحيث تكبر الفجوات أحياناً . . . ثم إن الموضوع نفسه رزح تحت سيطرة الكثير من الأساطير والأعاجيب ، وتفنن المؤرخون القدامى فى المبالغات . والخلط بين الأخبار المتقدمة والأخبار المتأخرة ، علاوة على التزييف والوضع . . .

كل هذا دعانى إلى محاولة كتابة تاريخ كامل للنشأة ، فقررت أن أعرض لمدارس الزهد ولمدارس التصوف ، فى الأقاليم الإسلامية المختلفة . وأقدم تاريخاً شاملاً لهذه المدارس ، مبيناً ما يميز كل مدرسة عن الأخرى ، متتبعاً رجالها ، موضحاً للنظريات التى انبثقت عن كل مدرسة ، ثم أبين النظريات العامة للزهد ، ثم للتصوف .

وقد رأيت أنه من الممكن اعتبار القرنين الأول والثانى الهجريين وحدة متكاملة تمثل تيار الورع

الذاتى الذى انقلب زهداً . . . وانتقل هذا الورع . . إلى زهد منظم . . . أخذ يضرب فى أواخر القرن الثانى نحو التصوف . ثم نعتبر القرنين الثالث والرابع وحدة أيضاً متكاملة ، تمثل تيار التصوف الخالص ، حيث ظهر التصوف – كعلم إرادة النفس وأخلاقها . . . ولقد كانت نشأة التصوف وتطوره فى هذه القرون الأربعة . أصبح بعدها علماً ومنهجاً . . . ونحن نعلم أنه ما لبث أن انقلب منذ القرن الخامس إلى طريقين : طريق أخلاق على يد الصوفية من الأشاعرة ، فكون علم الأخلاق الإسلامى حتى عصورنا الحاضرة ثم طريق فلسفى على يد الصوفية من الفلاسفة ، فأصبح فلسفة تدخل فى الإطار العام لتاريخ الفلسفة . . . كما نعلم . . . أن الطرق الصوفية تكونت ، وأصبح لها خطرها فى حياة المسلمين حتى أيامنا هذه .

ونحن فى سلسلة « نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام » لا نعنى سوى بالنشأة ولذلك سيقصر بحثنا على القرون الأربعة الأولى ، وما أضخم ما فيها من تراث روحى أصيل . وقد خصصت هذا الكتاب . . . الجزء الثالث من نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام « لبحث نشأة الزهد وتطوره فى القرنين الأول والثانى الهجريين ، وكنت أرجو أن تتسع صفحاته لتأريخ مدارس الروح الإسلامية الأولى جميعها فى هذين القرنين . ولكن الحيز الذى خصص للكتاب لم يتسع لتأريخ هذه المدارس كلها . فتوقفت عند شخصية إبراهيم بن أدهم الأستاذ الحقيقى لمدرسة الزهد فى خراسان ، ثم إننى لم أستطع أن أضمن صفحات الكتاب مدارس الزهد فى الجزيرة العربية ، ومصر ، والمغرب والأندلس . وسأعرض لهذه المدارس فى الجزء الرابع من نشأة الفكر . والذى أرجو . أن يصدر قريباً ، وهو يؤرخ بالإضافة إلى هذه المدارس المتبقية عن القرنين الأول والثانى ، لمدارس التصوف فى القرنين الثالث والرابع .

ولست أدعى أننى أحطت بكل شىء عن تلك المدارس الزهدية التى عرضت لها . ولكننى حاولت أن أقدم صورة واضحة لتطور الحياة الروحية فى الإسلام فى هذه الحقبة الأولى . . . وكنت أتمنى أن يتسع الكتاب لجميع مدارسها ، وأن يحوى النظريات كلها التى انبثقت عن هذه الحقبة ، ولكن شاء حيز الكتاب أن نتوقف عند هذا الحد ، كما قلت . وأرجو أن أقدمه للقارئ فى الجزء التالى . . .

والله ولى التوفيق

الإسكندرية فى ٦ ربيع الآخر عام ١٣٨٩
٢١ يونية عام ١٩٦٩

دكتور
على سامى النشار
أستاذ كرسى الفلسفة الإسلامية
بكلية الآداب . جامعة الإسكندرية